## بين الترف والإحسان

### خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ 2007/10/12م

مع آخر درسٍ من دروس شهر رمضان، ودروسُ شهر رمضان دروسٌ تستمد معناها من القرآن الذي أنـــزل في شهر رمضان، فما حظُّ المؤمن في هذا الشهر إلا بمقدار ما نستفيده من هذا القرآن، فقد نستفيد من هذا الشهر كثرة تلاوة للقرآن، وهي خيرٌ، لكن الأعظم أن نستفيد في هذا الشهر تفاعلاً مع القرآن، وتدبُّرًا لمعاني القرآن، وانضباطًا والتزامًا ينتجه إصغاؤنا واستماعنا بتوجيه القرآن...

فأحببت أن يكون درسنا الآخر هذا درسًا يجول في معنىً من معاني هذا الكتاب المنير.

ومما يستفاد من الكتاب العزيز المجيد أنَّه يعطيك الدلالات، ويفسر لك المعاني بنفسه، فأول مفسر للقرآن هو القرآن، فتارة يفسر لك معانيه من خلال القرائن المحيطة بالكلمة، وتارة من خلال التقابلات التي تُقدِّم إليك لوحتين متماثلتين في الظاهر، بحيث يتقابل المعنى في الأولى مع الثانية تقابلاً تامًّا، فالتركيب في بناء اللغة متماثل، والمضمون متقابل.

ومن استقرأ هذه اللغة في القرآن يجد منها شيئًا كثيرًا، لكنني اخترت نوعًا واحدًا، فكما أنه كان يورد الليل فيورد معه النهار، ويورد الكفر ويورد معه الإيمان، ويورد الظلمات ويورد في مقابلها النور في سياق ظاهر... أورد تركيبًا لغويًّا لم يتكرر في القرآن إلا بين متقابلين، و لم يقابل فيه لفظة بلفظة، لكنه قابل آية بآية.

ومثل هذا التقابل لا يستطيع اكتشافَه إلا من قرأ القرآن كله، لأن القرآن جملة واحدة.

لفت انتباهي هذا التقابل، و لم يتكرر في القرآن أبدًا.

إنها آية في سورة الذاريات قابلتها آية في سورة الواقعة، وتركيبها يقول لك: تنبّه، فقد قال الله سبحانه وتعالى في سورة الذاريات: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ} [الذاريات: 16] وقال في سورة الواقعة: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ} [الواقعة: 45]

ولا تجد في القرآن غير هاتين الآيتين فيهما: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ}، فما تكرر هذا اللفظ إلا في هاتين السورتين: الذاريات والوقعة.

فلفت انتباهي هذا التماثل في التركيب الذي يقودنا إلى تقابل بين لفظتين: المحسنين، والمترفين.

وبدأت أبحثُ عن وجه التقابل والتضادّ، لأن الذي يَخطر لنا في التقابل اللغويّ أن الذي يقابل الإحسان الإساءة، لكنَّه تبارك وتعالى في هذا الكتاب العظيم يقدم إلينا ما لا نصل إليه بمجرد التداول المكرور، فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ} وهو يتحدث عن المتقين.

وثمرة شهر رمضان التقوى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 183] ونحن في آخر يوم من أيام شهر رمضان، فهي فرصة لنقف مع الثمرة.

**قال تعالى في سورة الذاريات:**

- {إِنَّ الْمُتَّقِينَ} الذين تحققت لهم التقوى في الدنيا، والصيامُ سببٌ من أسباب التقوى، ولابد أن نستشعر التقوى في آخر أيام شهر رمضان، أما ثمرة التقوى فهي جنة عرضها السموات والأرض.

- {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ} من كرمه، وفضله، وعطائه، وعتقه لهم من النار...

- ثم فصّل بعد ذلك في سلوكهم بعد أن تحدث عن وصفهم ورتبتهم فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ، كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [الذاريات: 15-19]

- فأجمل الوصف حين قال: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ} فاختصر وصفهم بالمتقين، وفصّل سلوكهم قبل ذلك بمفردات فيها الإحسان، وفيها تدعيمُ باطن الإنسان بالروحانية، وفيها التوبة والأوبة، وفيها إنفاق المال..

- {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ} إحسانًا ظاهرًا وإحسانًا باطنًا.

* أما الإحسان الظاهر فهو: الارتقاء في المعاملة فوق رتبة العدل، فدُونَ رتبةِ العدل الظلمُ، وفوق رتبة العدل الإحسان، فإذا ظلمْتَ فأنت دون منـــزلة العدل، وإذا تجاوزت في معاملتك عباد الله إلى رتبةٍ فوق العدل فهو الإحسان الظاهر، أي إحسان المعاملة.

* وأما الإحسان الباطن فهو: استشعار صلةٍ بالله تبارك وتعالى وأنت تعبده: **(أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ)**، وفي رواية: **(أَنْ تَخْشَى اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ).**

فإذا اجتمع للإنسان إحسانٌ في الظاهر يرتقي فيه فوق رتبة العدالة، ويبتعد في هذه المنـــزلة كثيرًا عن الظلم، وجَمع معه الإحسانَ الباطن الذي يكون فيه موحِّدًا حقيقةً لربِّه تبارك وتعالى، وهو يقف على أرض العبودية له، يجد بعد ذلك أمرًا يقترن مع هذا الإحسان وهو:

- {كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} وما هو سرُّ الليل يا أحباب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟

النهار سببٌ لتعمير الجسد، والليل سببٌ لتعمير البواطن، فمن كان له في ليله جُهد واجتهاد يتوجّه فيه إلى الله، يتعمّر بذلك باطنه، ويتقرب بتعمير باطنه هذا إلى الله، ومن كان في نهاره مجتهدًا فيما أمره الله سبحانه من إعمارٍ للأرض وتعلُّمٍ وتعليم وعمل ومعاملات... يكون في ذلك متقربًا إلى الله في النهار.

فتعمير الجسد في النهار يكون بالعمل والمعاملة وفق شريعة الله تبارك وتعالى، وتعمير الباطن في الليل بصلةٍ تكون فيها متوجهًا إلى الله تعالى، ولا يشارك الله تعالى في هذه الصلة أحد، فالليل لتعمير البواطن.

فكانوا في وصف المحسنين ظاهرًا وباطنًا، وكانوا يعمرون بواطنهم مستثمرين خصوصية الليل الذي فيه تعمر البواطن.

فحينما أراد هذا الليل أن يخرج ودخل السحر، نظروا إلى ما عملوه، فوجدوا أنهم فيه مقصرون، لأن الله تبارك وتعالى يستحق العبادة أكثر وأكثر، وقد خلق الله سبحانه ملائكة منذ خلقهم وهم له راكعون، وخلق الله تعالى ملائكة منذ خلقهم وهم له ساجدون، فإذا كان يوم القيامة أمرهم فرفعوا رؤوسهم ونظروا إلى جماله، فإذا نظروا إلى جماله قالوا: **"مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ"**.

- وهذا حال القائم في الليل المعمِّر لباطنه، فإذا كاد ليله أن ينصرم وينصرف جلس يستغفر، لأنه ما عبد الله حق عبادته، فلم يستشعر أنه فعل شيئًا وهو يقوم الليل، و لم يستشعر أنه تقدم في عمله ذاك، إنما وجد أنه مقصر يحتاج إلى التوبة، فجلس قبل انصرام الليل يستغفر الله: {وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}

فلمّا دخل النهار استشعر المسؤولية الاجتماعية وخرج عن الفردية، فقد كان في الليل يعمر الباطن، فلما دخل النهار أنتج عمار الباطن ذاك مسؤوليةً اجتماعية، فلم يدخل النهار باللامبالاة، إنما دخل النهار وهو يستشعر حق الجار، وهو يرى حاجة الفقير، وهو يرى أنه له دورًا في المجتمع يمكن من خلاله أن يظهر وصف الالتزام بالعبودية لله...

- لذلك وصفهم الله تعالى في النهار فقال: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}.

أما السائل فإنه يسأل مذكِّرًا، وأما المحروم فإنه لا يسأل مع حرمانه ذاك حتى تُنقّب وتفتش عنه، فإذا جاع تكون آثمًا، وإذا كان محتاجًا ومضطرًا وأنت لا تدري بأمره كنت أنت الآثم، لأن المؤمن يتفقد أحوال أخيه، والمجتمع الإسلاميّ مجتمعٌ متكافل قد خرج من الفردية واللامبالاة.

فإذا انتقلنا إلى المقابل، الذي نعوذ بالله تبارك وتعالى منه، فإنه ملخّص في كلمة الترف، إذ يقابل وصفَ الإحسان الذي بيّنه ربنا في سورة الذاريات وصفُ الترف.

قال تعالى: {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ، فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ} أي في نار جهنم، فكما كانت جنةُ الله تبارك وتعالى نتيجةً للتقوى كانت جهنم نتيجة للترف، {لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ} [الواقعة: 41-45].

وكلمة المترفين غائبة في معناها عن الناس، حتى لقد شاع في عقولهم وأذهانهم أنها حالة التنعم التي يتنعم فيها الإنسان في النِّعم، وما هذه الدلالة بمقصودة، لأن التنعم بنعم الله تبارك وتعالى مع الشكر أمر ممتدح: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} [الأعراف: 32] فمعاذ الله أن يمنع عباده نعمَه التي أعطاهم إياها.

إذًا: فما هي حالة الترف التي تقابل الإحسان، والتي تسوق إلى نار جهنم؟

وفي مثل هذه الحالة لابد لنا أن نرجع إلى لغة العرب، لأن القرآن لا يمكن أن يقدم لفظة لا تجد في لغة العرب معناها ودلالتها.

المُترف: هو الذي أبطرته النعمة، أي أخرجته النعمة إلى البَطَر، والبطر حالة من الفوضوية واللامبالاة، وهو حالة من التوجه إلى الملذات ليكون عبد الملذات، وليكون عبد هواه فيها، فالله سبحانه وتعالى أعطانا النعمة لنكون عبيد المُنعم عند النعمة، فمن عبد هواه في النعمة فهو المترَف.

وبهذا تتجلى الصورة، وبهذا يتّضح المعنى، فقد أنعم الله تعالى علينا بالمال، وأنعم علينا بالصحة، والأمنِ، وطيبِ المأكل، ويُسرِ الملبس، وأنعم علينا بمحمد عليه الصلاة والسلام، وبأنوار القرآن الكريم، وبمواسم الخير العظيمة التي نندفع فيها زرافاتٍ ووحدانًا إلى بيوت الله لنحضر صلاة القيام، ونجتمع على موائد الصيام: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا} [إبراهيم: 34].

فإذا كان كلُّ ذلك سببَ تذكر ورجوعٍ إلى الله، وكان يذكرنا بالله المُنعم، ويرفعنا إلى حالة المسؤولية عن أنفسنا وعن الآخرين... إذًا: لسنا من المترفين.

وإذا كنا نستثمر نعم الله تعالى من أجل إشباع النفس، غائبين عن العبودية لله تبارك وتعالى، فعندها نكون من المترفين.

ستخرجون من شهر رمضان إلى العيد، فهل سيكون العيدُ عيدَ ترف، أم سيكون عيدَ إحسانٍ وشكرٍ لله تبارك وتعالى؟

هل سيكون العيد عيد معصية نرتكب فيه المخالفات، أم أنه سيكون عيد انضباط؟

هل سنخرج بعد شهر رمضان إلى سَنَةٍ فيها من المخالفة لأمر الله، أم أننا سنخرج من موسم شهر رمضان إلى حالة انضباط والتزام...؟

إنها إذًا حالة تقابل.. إنها منـــزلة من منـــزلتين، وخيار من خيارين:

{إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ} وَ {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ}

وقال تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} [الإسراء: 16].

رُدَّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.